ديوان حافظ الشيرازى

مخطوطة منه مصورة من بخارى فى القرن السادس عشر الميلادى

بقلم الدكتور جمال محمد محرز

فى أوائل القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ولد فى شيراز شمس الدين محمد الحافظ الملقب بلسان الغيب ، وهو حافظ الشيرازى شاعر إيران الغزلى الصوفى الذائع الصيت . وقد تردد حافظ على حلقات الدروس التى كان يعقدها علماء عصره ، فحفظ القرآن ودرس علوم الدين والفلسفة والآداب ، وكان فصيحاً بليغاً مع رقة وبساطة « وقد جمع حافظ كل مميزات السابقين وبرّز وتفوّق على من جاراه من المعاصرين ، وبقى فى مكانه لا يتطاول إليه أحد من اللاحقين ، وأضفى على الغزليات جمالا لم نعهده من قبل » . وقد توفى حافظ عام ٧٩١ ﻫ (١٣٨٩ ميلادية) .

ويشتمل ديوان حافظ على قصائد وغزليات ومثنويات ورباعيات ؛ وتاريخ النسخة المحفوظة من هذا الديوان بمكتبة الإسكوريال تحت رقم ٤٠٠ عربى هو ١٢ من جمادى الثانية عام ٩٦٢ هجرية (١٥٥٤ ميلادية) على ما ذكر بالورقة ١٥٨ ا . وقد أتيحت لى الفرصة أثناء وجودى بإسبانيا لدراسة هذه المخطوطة ، وإنه ليسرّنى أن أقدّم لقراء العربية ولغيرهم وصفاً لها ودراسة لصورها إذ لم يسبق أن نُشر عنها شىء من قبل .

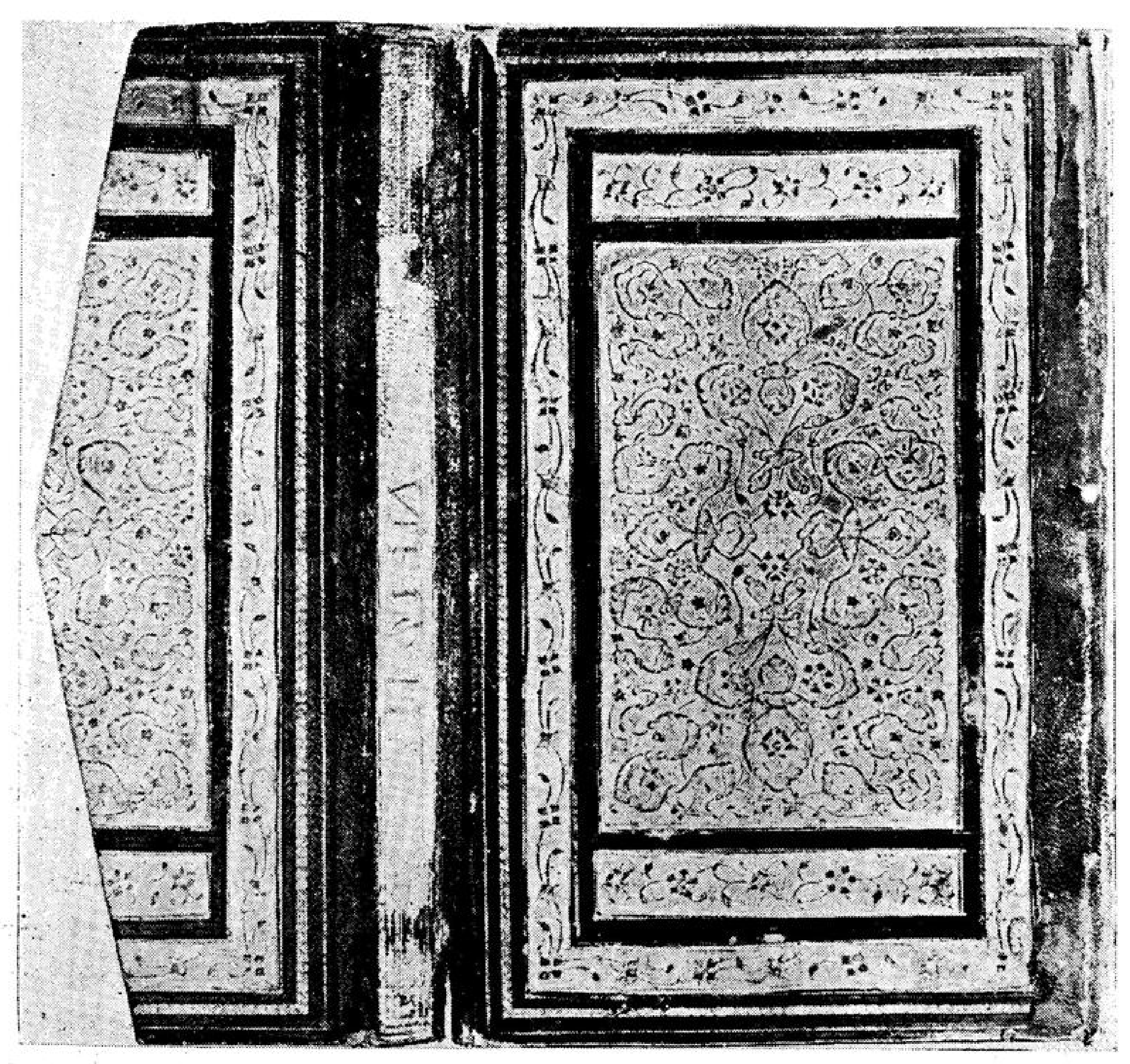
* * *

عدد أوراق هذه المخطوطة ١٥٨ ورقة منها صفحة واحدة مذهبة كلها وثلاث صفحات مصورة . والمخطوطة محفوظة بين دفّتين لها غطاء جلدى جميل من جلود الكتب الإيرانية من القرن السادس عشر الميلادى .

وهذا الغلاف من نوع الجلود المذهبة التى يغلب على عناصرها الزخرفية رسوم السحاب الصينى فى أوضاع زخرفية تحصر بينها رسوم أزهار (شكل ١) . والتصميم الذى اتبع لزخرفة هذا الغلاف هو تقسيمها إلى مستطيل يشغل معظم مسطحها ويحتل الجزء الأوسط للغلاف ، وله من أعلى ومن أسفل إطار ضيق . ثم نجد إطاراً آخر يحيط بأضلاعه الأربع . والطريقة التى اتُّبعت فى زخرفة الغلاف هى الطريقة التى كانت مستخدمة فى هذا القرن وقوامها تغطية المستطيل الرئيسى بورقة رقيقة من الذهب ثم يضغط عليها بقالب ساخن بعض الشىء حتى تنطبع العناصر الزخرفيـــة المنقوشة فى القالب على الغلاف . وكان من المتبع أن يكون هذا القالب بقدر نصف مساحة المستطيل فيوضع على نصفه ويضغط عليه ثم ينزع عن هذا النصف ويوضع على النصف الآخر وضعاً عكسياً ثم يضغط عليه . ومن عيوب هذه الطريقة أنها تترك أثراً هو موضع التقاء القالب فى منتصف الجلد ويمكن ملاحظة هذا الأثر فى الصورة المنشورة .

وإذا كانت زخارف الميدان الرئيسى من رسوم السحاب الصينى والأزهار النباتية فإن زخارف الإطارات من فروع وأزهار نباتية فقط . وقد زخرف اللسان بالطريقة نفسها وبالعناصر الزخرفية ذاتها .

واختار المجلد لزخرفة باطن الغلاف أو الوجه الداخلى بمعنى آخر تصميما وطريقة تخالف ما اتبع فى ظاهره ، وهى طريقة أكثر دقة من الأولى وأقل مقاومة لفعل

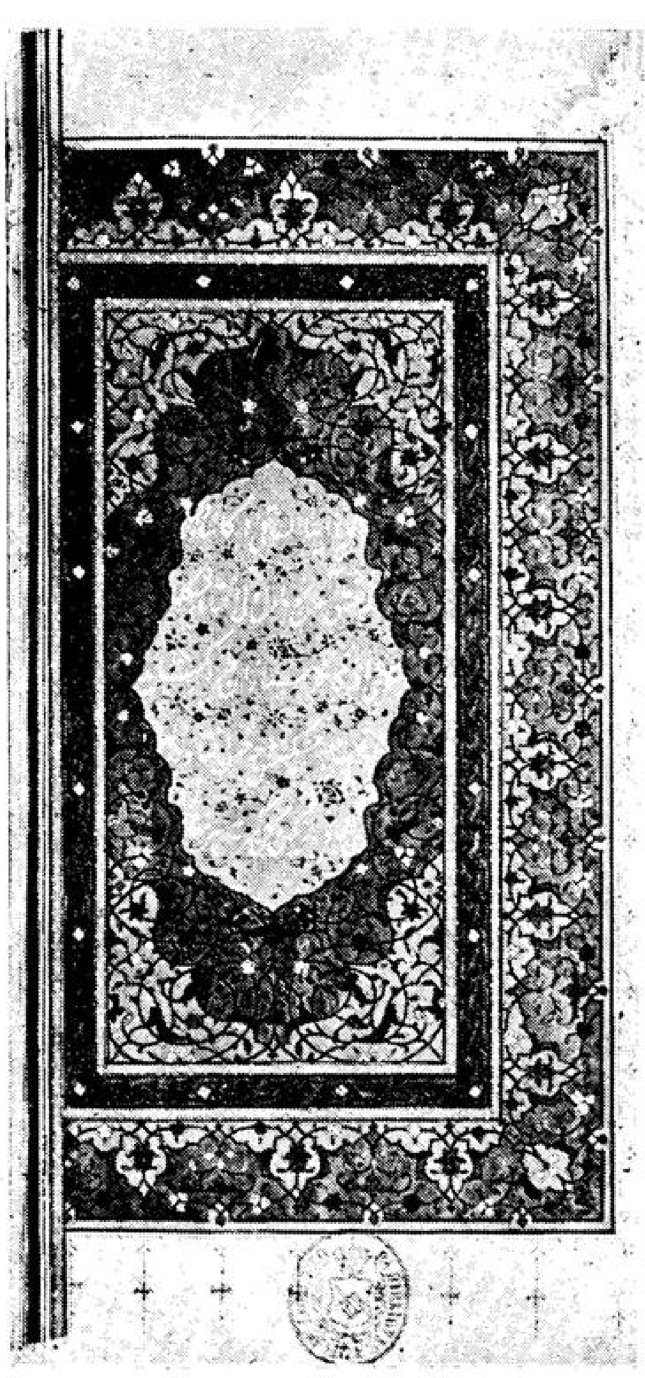


شكل (١) – غلاف مخطوطة ديوان حافظ الشيرازى بالإسكوريال

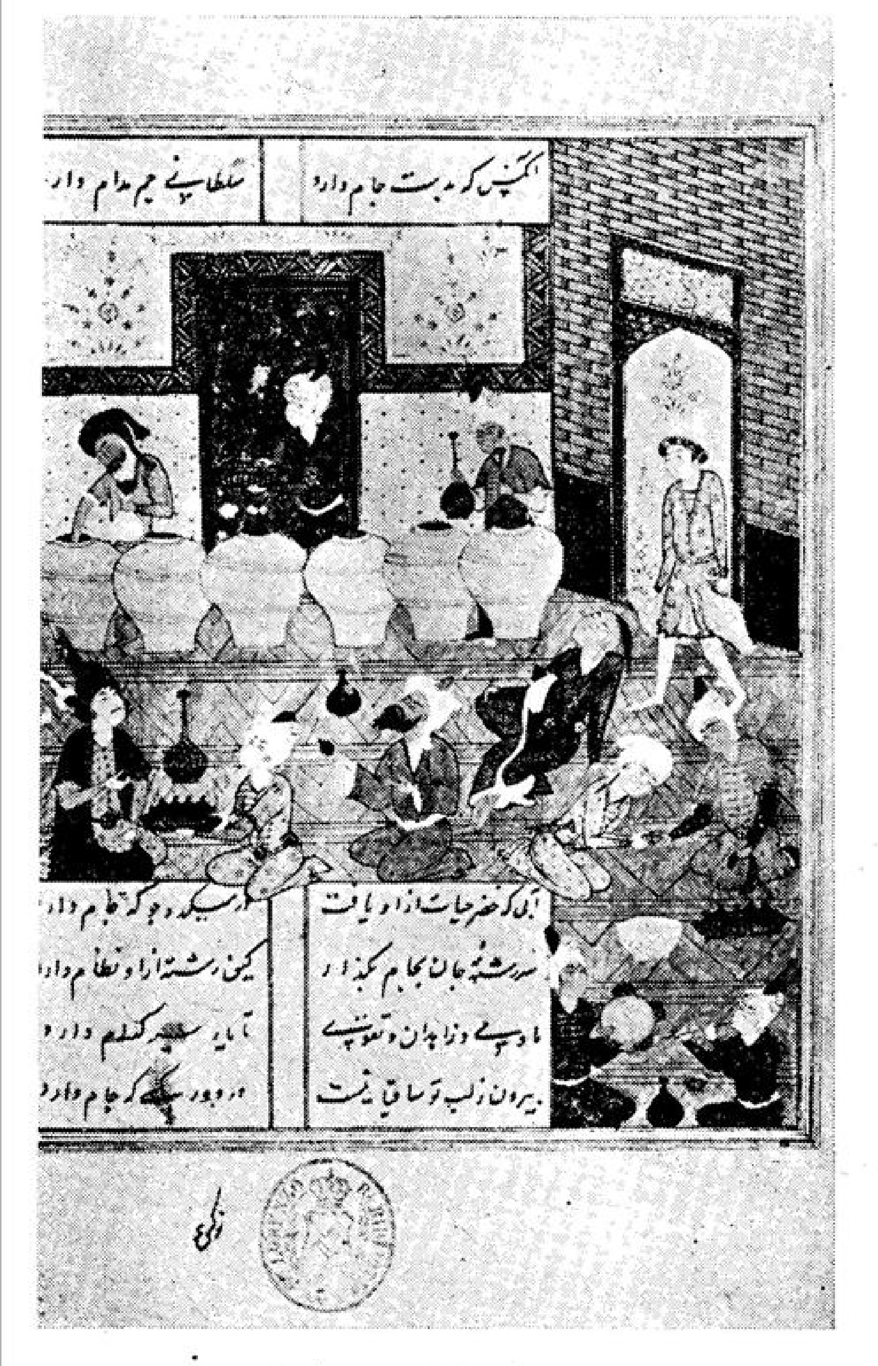
الأيادى والأصابع وما تتركه من أثر عند تداولها للمخطوطة ، ولقد كان المجلد موفقاً فى اختيار هذا الأساوب الصناعى لزخرفة باطن الغلاف إذ أن هذا الوجه أقل تعرضاً لفعل الأيادى وأكثر حفظاً وصوناً . أما هذه الطريقة فهى التخريم بشكل يشبه الدنتلا .. إذ ترسم العناصر الزخرفية ، ثم يقطع الفراغ المحصور بينها وينزع ؛ ولكى تظهر هذه الزخارف بوضوح تلوّن خلفيّتها أو الأرضية التى خلفها بلون مغاير للون الغلاف والعناصر الزخرفية .

والتصميم هنا عبارة عن مستطيل فى الوسط به منطقة بيضاوية الشكل ذات دلاّيات وفى أركان المستطيل أرباع المنطقة ، أما الإطار المحيط بالمستطيل فزخرفته عبارة عن عنصر على شكل صليب يتكرر ويفصل بين كل زهرة نباتية .

والصحيفة المذهبة (ورقة ٢ ب) تشبه إلى حد ما



شكل (٢) – صفحة مذهبة ديوان حافظ الشيرازى



شكل (٣) – منظر فى حانة

بعض السجاجيد الإيرانية من القرن السادس عشر الميلادى وتصميمها على النحو الآتى (شكل ٢) مستطيل به منطقة مفصصة وأرباع المنطقة بين زواياه الأربع . وقد كتب فى المنطقة اسم المخطوطة « ديوان حافظ » وبعض أبيات إحدى غزلياته وهى التى مطلعها :

ألا أيها الساقى أدر كأساً وناولها

كه عشق آسان نمود أول ولى أفتاد شكلها (١)

وقد كتبت الحروف بمداد أبيض اللون على أرضية زرقاء ، وملىء الفراغ بين السطور بأزهار نباتية ذهبية

(١) معنى الشطر الثانى هو : العشق أوله سهل وآخره صعب .





شكل (٤) – منظر صيد

اللون . أما باقى مساحة المستطيل فيزينها توريق وأزهار وأنصاف أوراق رمحية الشكل ، ونلاحظ أن هذه العناصر نفسها تزين أرباع المناطق كذلك .

ويحيط بهذا المستطيل إطار ضيق به جدائل تحصر بينها أزهار ، ثم يحيط بهذا من جهات ثلاث فقط إطار عريض آخر به رسوم قريبة الشبه بالشرافات التى نراها بأعلى المساجد ، وزخرفة هذه الرسوم والفراغ المحصور بينها من توريق وأزهار كتلك التى تزين المستطيل الأوسط . ثم نجد بهامش الصحيفة من هذه الجهات الثلاث خطوطاً رفيعة كأنها الحراب يتوسطها ما يشبه الصلبان . أما الضلع الرابع وهو الضلع الداخلى للمستطيل ففيه عدة خطوط متوازية .

والصفحات التالية من ورقة ٢ ب إلى ٤ لها نظامها الخاص إذ يقسمها إطاران أفقيان إلى ثلاثة أقسام ، فضلا عن قسمتها إلى قسمين رأسيين بوساطة إطار ، أى على النحو الذى اتبع فى صفحات المخطوطة .

وتطالعنا أولى صور هذه المخطوطة بالصحيفة ٣٤ ب (شكل ٣) وهى تمثل منظر طرب وشراب فى حان صفت فى مؤخرته دنان الخمر ، ووقف من خلفها رجل عجوز يملأ من إحداها قارورة فى يده ، وفى انتظاره



شكل (٥) — منظر شراب ومذاكرة

شابٌ يحمل قارورتين أخريين على حين أقبل شابٌ آخر حافى القدمين يحمل إناءين آخرين ، وقد وقف بجوار هذا الشيخ العجوز شابٌ يحمل إناء مغطى . وفى الجزء الأمامى من الصورة نشاهد ثلاثة أشخاص من ذوى المقام كما تدل على ذلك ملابسهم ، ومع كل منهم شاب يقدم له الشراب أو الطعام كما نرى شابين مع أحدهما مزمار ومع الآخر دفٌ ، وفى وسط الصورة شيخ عجوز يخاطب أرفع هؤلاء الأشخاص الثلاثة مكانة ، وقد راح أحد هؤلاء الثلاثة فى غيبوبة .

وأرضية الحجرة مغطاة بقطع من البلاط ، على شكل مثلثات ، والجدار الخلفى له إزار من بلاطات القاشانى السداسية الشكل يعلوها إطار مزخرف بجدائل ، وزخرفت مناطق الجدار برسوم أزهار ونباتات .

وتمثّل الصورة الثانية (ورقة ١٦٥ ا) منظراً لصيد حيوانات بريّة ، فنرى ثلاثة شبان يرتدون ملابس فخمة وقد امتطوا صهوات الخيل وأخذوا فى مطاردة حمار الوحش والغزلان والأسود والأرانب وسط ربوة نمت بها أزهار ونباتات وأعشاب ؛ فهذا شابٌ طوّق حمار



شكل (٦) – العجوز والسلطان سنجر
مدرسة بخارى (القرن ١٦ م) من عمل المصور محمد مذهب

الوحش بحبله ، وآخر شطر غزالا نصفين بسيفه ، وثالث أصاب أسداً فى كتفه بسهمه فجندله ، على حين أخذت الحيوانات الأخرى تولى مذعورة . ونجد وراء التلال شيخاً عجوزاً يتحدث إلى شابين (شكل ٤) .

والصورة الثالثة (ورقة ١٠٣ ب) لمنظر طرب وشراب فى الهواء الطلق : ففى وسط الصورة نجد مجموعة من الأشخاص تدل ملابسهم على علوّ مكانتهم ، وأمام أكبرهم شابٌ يقدم الشراب ، على حين يقدم أحد الشخصين الآخرين قدحاً إلى زميله الجالس بجوارهم ، وقد جلس بالقرب منهم شابٌ يقرأ من كتاب مفتوح فى يده ، والشيخ العجوز الملتحى يحدّث الفرقة الموسيقية التى ظهرت فى مقدمة الصورة ، وهى مؤلفة من شابين يضرب أحدهما على الدف ، ويعزف الآخر على المزمار . ومن خلف التلال ظهر شابان . ويتخلل المنظر شجرة مشمش قامت على حافة جدول يجرى فى مقدمة الصورة ، وقد ظهرت على حافته بعض الأزهار التى نجد مثيلا لها هنا وهناك فى باقى أجزاء الصورة (شكل ٥) .

* * *

تلك هى الصور الثلاث التى تزين هذه المخطوطة وقد استخدم المصور فى تلوينها اللون الذهبى والأزرق والبنفسجى والأسود والأخضر والبرتقالى والأصفر الضارب إلى الخضرة والأبيض والقرمزى .

وإذا كان غلاف المخطوطة والصفحة الأولى المذهبة منه واضحى النسبة إلى الطراز الصفوى الذى ساد إيران فى القرن السادس عشر الميلادى فإن صورها تختلف عن ذلك وإن كانت من القرن السادس عشر أيضاً ، فهى أقرب ما تكون — من حيث نباتاتها وأرضياتها — إلى صور العصر التيمورى من القرن الخامس عشر الميلادى غير أننا لا نجد فى ملابس الأشخاص وغطاء الرأس هذا الذى يقلد غطاء الرأس المشهور الذى ظهر فى القرن السادس عشر الميلادى والذى نتخذه علامة على نسبة الصور إلى العصر الصفوى الذى يختلف عنه فى الشكل ، لا نجد تلك العصا الطويلة الرشيقة الحمراء اللون فى أغلب الأحيان والتى تظهر من وسط العمامة المخروطية الشكل والتى كانت شعاراً للأسرة الصفوية على ما يبدو فى (شكل ٦) ، بل نجد عصا غليظة قصيرة ؛ وهذا فضلا

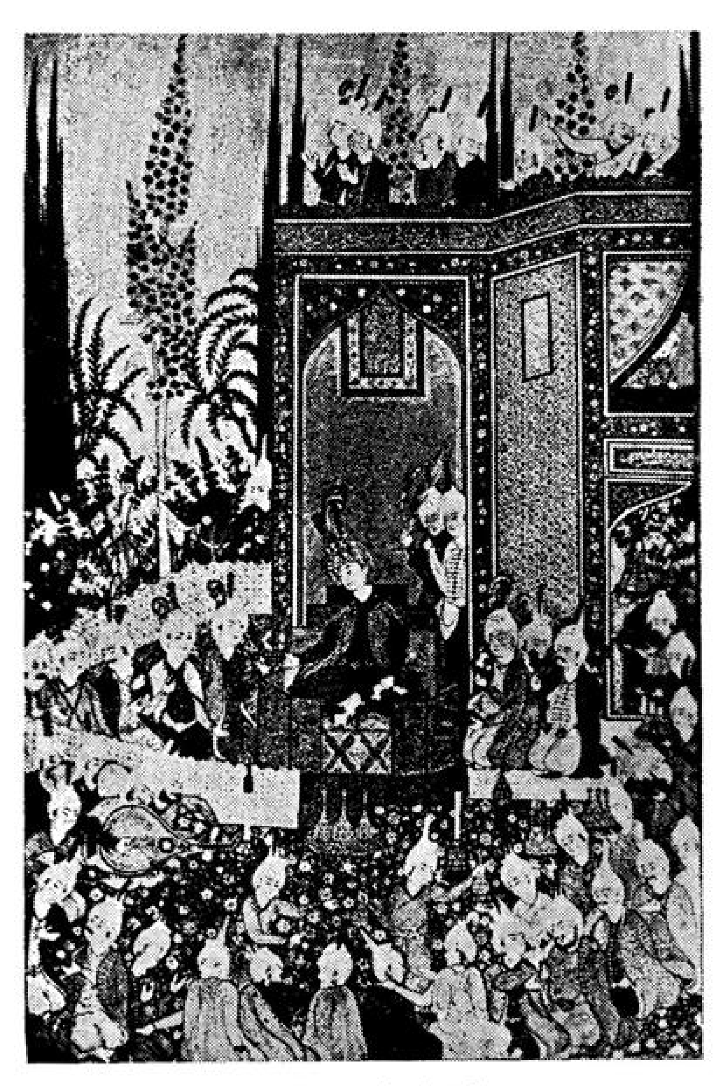
عن غطاء الرأس المكون من قلنسوة مرتفعة مدببّة الطرف ذات إطار من الفراء . وكان هذا الغطاء من الأغطية التى ظهرت فى مدرسة بخارى . وإلى هذه المدرسة الأخيرة نسب رسوم ديوان حافظ التى نتحدث عنها الآن .

* * *

وقد ساعد على نشأة مدرسة بخارى المصورون الذين هاجروا إليها من هـَرَاة فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى بسبب الأحداث السياسية التى كانت جارية حين ذاك ، وبسبب تنافس الصفويين والأوزبك فى الاستيلاء على هذه المدينة . وقد هاجر مصوّرو هراة إلى بخارى على دفعتين : الأولى عندما استولى الصفويون على هراة عام ٩١٣ هـ — ١٥١٠ م من الأوزبك الذين اضطروا إلى الارتداد إلى بلاد ما وراء النهر حيث أخذوا يحكمون من بخارى وسمرقند ، وكان خضوع هراة للصفويين معناه فرض المذهب الشيعى عليها بعد أن كانت تدين بالمذهب السنى .

والهجرة الأخرى كانت بسبب استيلاء الأوزبك على هراة ونهبها عام ٩٤١ هـ — ١٥٣٥ م وكانت هجرتهم مع من هاجر منها من رجال الفن الذين كانوا قد بقوا بها.

ولذا كانت مدرسة بخارى أقرب ما تكون فى أسلوبها إلى المدرسة التيمورية (شكل ٧) إذ أسست على أيدى



شكل (٧) — منظر طرب
المدرسة الصفوية الأولى — (القرن ١٦ م)

مصورين تيموريين ،وكان من أشهر مصوّريها محمود مذهب الذى كان يعمل فى بلاط السلطان حسين بيقرا من سلاطين الأسرة التيمورية فى إيران .

